الآثار الآرامية ومميزاتها في متحف حلب

محمد وحيد خياطة

المديرية العامة للآثار والمتاحف

قبل التحدث عن الآثار الآرامية في شمالي سورية لا بد من التنويه إلى أن الاختلاط العرقي الجنسي للشعبين الآرامي والحثي في عصر واحد جعل من العسير على أي باحث التمييز الدقيق بين الفن الآرامي والفن الحثي الجديد .

وحتى الآن تبقى العلاقات التي كانت تربط دول المدن بعضها ببعض سواء أكانت حثية أم آرامية غير واضحة، وكذلك علاقتها بمن سبقتها من الشعوب .

فالآراميون استولوا على مدن حثية كانت قائمة فعلاً بوصفها دولاً مستقلة، وحافظوا على تقاليدها الحثية المستمدة من العصر الذهبي (مثل مملكة حماه)، إلا أن هذا لم يمنع الآراميين من أن يؤسسوا مدناً جديدة لم تكن موجودة أصلاً .

ومن هنا تأتي صعوبة التمييز بين الفن الحثي والفن الآرامي من خلال الشواهد الأثرية وخاصة المنحوتات والمجسمات لكلا الشعبين، ونرى الطابع الآرامي غالباً في بعض المدن مثل مملكة « بيت أغوشي » المحيطة بحلب، والتي كانت عاصمتها أرفاد (تل رفعت)، في حين يغلب الطابع الحثي في بعضها الآخر، كما هو الحال في تل عين دارا » الذي لا يبعد أكثر من ٤٠ كم جنوب غرب تل رفعت .

وقد دخل إلى جانب العناصر المؤثرة في الفن الآرامي من ميتانية وحثية وآشورية، عنصر جديد لا يقل أهمية عن غيره، ألا وهو العنصر القادم من أورارتو في أرمينية، الذي استطاع أن يهيمن سياسياً وعسكرياً على شمال سورية في النصف الأول من القرن الثامن ق .م، وأن يترك بصماته في المنحوتات والمجسمات إلى جانب التأثيرات الحثية والآشورية .

لم تجر أعمال تنقيب أثرية بما فيه الكفاية في موطن الآراميين كذلك فقد أهمل الدارسون « الفن الآرامي » وذلك بسبب قلة المكتشفات الأثرية .

ففي حلب نفسها الواقعة في مملكة « بيت أغوشي » لم يعثر فيها إلا على النذر اليسير من الآثار الآرامية، منها النقش المنحوت على كتلة ضخمة من حجر البازلت لجنيين مجنحين، واكتشف تمثال آخر من البازلت في موقع عين التل شمالي حلب، كما عثر على نصبين من حجر البازلت في صرين بالقرب من عين العرب،

مشابه لتمثال عين التل الذي مر ذكره، والتمثالان منحوتان بأسلوب أقرب إلى الأسلوب الحثي الجديد منه إلى الأسلوب الآرامي المتأثر بالفن الآشوري.

وكل الآثار التي هي موضوع البحث جاءت من أماكن متفرقة في القطر العربي السوري، دون إجراء أعمال تنقيب منهجية فيها.

وتبقى الآثار الآرامية في سورية حصيلة فنون لحضارات شعوب متعددة، مضافاً إليها نكهة آرامية متميزة.

❀ ❀ ❀

مدخل:

قبل الخوض، في البحث عن الآثار الآرامية، ومميزاتها في سورية، لابد لنا من وقفة قصيرة، عند كلمة سورية، فسورية اليوم، ضمن حدود القطر السوري، هي غير سورية القديمة، بحدودها الحضارية المترامية الأطراف.

وبغض النظر عن مقاطعة لواء اسكندرون، التي اقتطعت حديثاً عن جسم القطر العربي السوري، خلال عهد الإنتداب الفرنسي لأسباب سياسية، فالقسم الأعظم من جنوب هضبة الأناضول، كان يشكل جزءاً هاماً من جسم سورية القديمة، ولم يزل هذا الجزء يوصف في معظم الدراسات الأثرية والتاريخية على أنه سوري، ناهيك عن لبنان وفلسطين وشرق الأردن.

صحيح أنها لم تشكل يوماً ما وحدة سياسية، ذات سلطة مركزية قوية، نظراً لطبيعتها الجغرافية المتباينة، وظروف سكانها الاجتماعية غير المستقرة، إلا أنها كانت تشكل وحدة حضارية متميزة، بكل خصائص الحضارة المتعارف عليها.

لقد وطئت أرض سورية أقدام غريبة جاءت من جهات عدة، فمن الشرق والشمال الشرقي قدم الشعب الهندو أوربي تحت اسم «حوري - ميتاني»، ومن الغرب شعوب البحر، وفي جعبة كل منهم زاده الحضاري المستقل، إضافة إلى شعوب الرافدين والأناضول ومصر، ليدلي كل بدلوه.

إلا أن سورية استوعبت كل الموجات البشرية التي حطت على أرضها، فصقلتها، وهذبتها، وأذابتها في بوتقة الحضارة الواحدة.

والآراميون هم شعب من شعوب العائلة السامية الذين ساهموا في وضع لبنات جديدة في صرح الحضارة في سورية وتركوا بصماتهم ظاهرة في لوحة الفسيفساء، ذات التكوين الرائع، التي تكونت عبر آلاف السنين، دون أن تشذ عن المتوارث المعروف، أو تصاب بخلل، يفسد وحدة انسجامها.

ومن هذا المنطلق سوف نتحدث عن الآثار الآرامية في سورية بعد أن اقتضى التنويه.

مصادر التاريخ الآرامي:

١- الكتابات المسمارية الآشورية.

٢- الكتابات الآرامية ومعظمها ذات صبغة دينية وشخصية وإدارية محلية.

٣- الكتاب المقدس (العهد القديم) ومقارنته بالنصوص الآشورية، لتحديد العصر بدقة حيث أن التدوين التوراتي، حدث في وقت متأخر من زمن الأحداث، التي يروي عنها، والتي غالباً لم تتحقق إلا في عصور لاحقة.

أصلهم:

ليس لدينا للأسف أية وثيقة تاريخية أو أسطورة شعبية، نستطيع من خلالها معرفة المنطقة التي انطلقوا منها بادىء ذي بدء، وإن أجمع معظم الباحثين على القول: أن منشأهم يجب أن يكون حيث انطلقت معظم الهجرات السامية التي سبقتهم، أي من الجزيرة العربية عبر البادية العربية السورية، والتي كان آخرها الفتح العربي تحت راية الاسلام.

يرد في نصوص ماري، من القرن الثامن عشر ق.م، وصف لقبائل شبه بدوية تدعى أحلامو، وتذكر النصوص الآشورية من القرن الرابع عشر ق.م معارك دامية خاضها الجيش الآشوري ضد الأحلامو، وبعد قرنين من الزمن، تتحدث النصوص الآشورية عن الـ (الأحلامو) مقترناً بالآراميين «أحلامو أراميا» أي أحلامو الآراميين، وتصفهم بقبائل نصف بدوية، تتمركز في البادية السورية، وفي جزيرة البحرين.

وغالباً ماكانت تحتدم المعارك بين الآشوريين والآراميين غرب الدولة الآشورية في جبل البشري وتدمر.

ولا يعرف حتى يومنا هذا، فيما إذا كان الآراميون والأحلامو شعباً واحداً، أم شعبين متحالفين تحت قيادة واحدة، ولكن الثابت، هو صلة القرابة التي تجمع بينهما، في الوقت الذي بدأ فيه الآراميون يتخلون عن بداوتهم ويستقرون في المدن، وقد استقر الآراميون غرب الرافدين في وادي الخابور، في المنطقة المسماة آرام نهاريم، والواقعة بين الفرات والخابور حول حران.

وكان يقطن هذه المنطقة شعوب سامية قريبة من الآراميين في الألف الثاني ق.م وربما في وقت أبكر (كما تشير اللقى الأثرية المكتشفة في تل خويره والتي تعود إلى الألف الثالث ق.م).

ثم أصبحت المنطقة نفسها جزءاً من دولة الميتانيين غير السامين بين ١٥٠٠ـ ١٢٧٠ق.م، وما أن حل القرن الثاني عشر، حتى تغير وجه المنطقة كلياً، نتيجة أحداث ضخمة، أبرزها اكتشاف الحديد، واستخدامه في الصناعة والحرب، واجتياح شعوب البحر أسية الصغرى والقسم الغربي من الشرق العربي، فتداعت الدولة الميتانية، وانفرط عقد الدولة الحثية إلى دويلات وإمارات صغيرة، وتراجع النفوذ المصري عن سورية وكنعان، بدفع شعب الفلستر عن مصر نفسها وإجباره على الإقامة في كنعان، التي أصبح اسمها منذ الآن فلسطين المشتق من الفلستر.

وكان قد أزفت ساعة الآراميين، ليلعبوا دورهم على مسرح الأحداث في المنطقة، فتخطوا حدود الدول القائمة في بلاد الرافدين، إلا أنهم ردوا على أعقابهم، من قبل الآشوريين، فانطلقوا من وادي الخابور غرباً، حيث استطاعوا أن يستقروا في الشمال ووسط وجنوب سورية.

واستغلوا فترة ضعف الحكم الآشوري، فاقتطعوا عدة مناطق من الدولة الآشورية، واستولوا على طرق القوافل التجارية، شريان الحياة في الشرق القديم، ونجحوا في إيصال أحد قادتهم إلى عرش بابل (أدد ـ أفال ـ إدين) وإنتزاع اعتراف آشور به، وذلك بتزويج ابنته للملك الآشوري.

وهكذا ـ أصبح الآراميون قوة مرهوبة الجانب، يحسب حسابها في الموازنات الدولية، إلى جانب كونهم تجاراً مهرة سادوا العالم القديم.

عصر دول المدن الآرامية والحثية الجديدة:

عندما انهار صرح الإمبراطورية الحثية، حوالي عام ١٢٠٠ق.م، حدثت تطورات عرقية وسياسية وحضارية، أوجبت التغيير في أجزاء واسعة من البلاد، فعلى أنقاض الدولة المركزية القوية، قامت دول مدن كثيرة بعضها آرامي، وبعضها الآخر حاول أن يحافظ على تراث الحضارة الحثية ويجدد شبابها، ولم يكن في مقدور أي دولة من هذه الدول أو إمارة من هذه الإمارات التي قامت إلى جانب بعضها بعضاً، أن تملك القوة الكافية للهيمنة وتشييد دولة مركزية قوية، تخلف الدولة الحثية في إرثها السياسي والحضاري الضخم.

ومعظم هذه الدول نشأت في شمال سورية وجنوب الأناضول، في المنطقة التي لم تتأثر كثيراً بالهزات السياسية، التي عصفت بالشرق القديم.

وكان أشهر دول المدن الحثية مدينة كركميش، التي يدّعي مؤسسها من العائلة المالكة، أنهم ورثة الملوك الحثيين العظام، إلا أن الحقيقة، لم يتبع كركميش من دول المدن الحثية المشابهة أية دولة أخرى مثل: أونقي، وغور غوم، ومليد (ملاطيا)، وكمحي، وماراش، وحطي.

وقد عاش الآراميون جنباً إلى جنب مع الحثيين الجدد، وكانت أشهر ممالكهم في الشمال: مملكة بيت عديني وعاصمتها تل برسيب (تل أحمر حالياً)، وتمتد شرقاً إلى نهر البليخ. ومملكة بيت بحياني وعاصمتها غوزانا (تل حلف حالياً).

وفي شرق الخابور الأعلى ثلاث إمارات أسستها القبيلة الآرامية تيمانيا وهذه الإمارات هي: (تنصيبين وحوريزانا وجيدرا)، وإلى الشرق منها احتلت قبائل سوهو الآرامية

ضفاف الفرات، من عانة إلى ريبقو، وفي نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن العاشر احتل الآراميون مدينة بيترو، الواقعة عند مصب الساجور تحت مدينة كركميش، ومدينة موتكينو على ضفة الفرات اليسرى.

وفي الغرب تمكنوا من تأسيس إمارة بيت أغوشي، التي تضم حلب وأرفاد (تل رفعت حالياً) المجاورة لبيت عديني؛ وبقيت كركميش حثية حتى سقطت بيد الآشوريين في عهد صرغون الثاني.

كما استطاع الآراميون أن يؤسسوا دولة يعودي، التي يطلق عليها أيضاً سمآل (الشمال) عند جبل الأمانوس «زنجرلي حالياً».

وقد وصل الآراميون جنوباً حماة منذ نهاية القرن الحادي عشر، والحفريات الي أجريت هناك كشفت حضارة آرامية تلي مباشرة الطبقة الحثية.

أما بقية الممالك الآرامية في جنوب العاصي والليطاني، فنسمع عنها من خلال نصوص الكتاب المقدس مثل آرام صوبا، وآرام بيت رحوب، وآرام معكة، وجشور، وآرام دمشق، ويعتقد أن آرام صوبا تقع في البقاع، وبيت رحوب جنوبها عند منعطف الليطاني.

أما معكة فتشمل مقاطعة دان (تل القاضي) والفولانية، وتقع جشور في الشرق بين اليرموك ودمشق.

ويظهر أن الآراميين لم يتمكنوا من الوصول إلى الساحل، نظراً لوجود الفينيقيين الأقوياء هناك.

واقع الشواهد الحضارية من العصر الآرامي:

قبل بدء التحدث عن المخلفات الحضارية للشعب الآرامي في سورية، لابد من التنويه إلى أن الاختلاط العرقي الجنسي للشعبين، الآرامي والحثي، في عصر واحد، جعل من العسير على أي باحث، التمييز بشكل دقيق، بين الفن الآرامي والفن الحثي الجديد.

وحتى الآن تبقى العلاقات التي كانت تربط دول المدن بعضها ببعض سواء أكانت حثية أم آرامية غير واضحة، وكذلك علاقاتها بمن سبقها من الشعوب، وعلى كل حال، نحن لانعرف عن الآراميين قبل استقرارهم في المدن، إلا ماورد في الكتابات الآشورية.

ويزعم الأستاذ (لاند زبرجر) أن الآراميين استولوا على مدن حثية كانت قائمة فعلاً كدول مستقلة، وحافظوا على تقاليدها الحثية المستمدة من العصر الذهبي، إلا أن هذا لا يمنع من أن الآراميين أسسوا مدناً جديدة لم تكن موجودة في الأصل، ويخلص الأستاذ (لاند زبرجر) إلى نتيجة، وهي صعوبة التمييز بين الفن الحثي الجديد والآرامي من خلال المخلفات الحضارية، وخاصة المنحوتات والمجسمات لكلا الشعبين.

في حين يقترح آخرون تسمية عامة تشمل حضارة الشعبين باسم حثي آرامي، فقد وصل الحثيون إلى شمال ووسط سورية، من جنوب شرق آسيا الصغرى خلال اجتياح شعوب البحر للمنطقة، حاملين معهم أسماءهم الحثية ولغتهم وكتابتهم الهيروغليفية المصورة، ليشاطروا السكان المحليين حياتهم، الذين هم من أصل كنعاني وحوري ميتاني، إلى جانب الآراميين الطامحين إلى السلطة.

ولهذا نرى الطابع الآرامي غالباً في بعض المدن مثل مملكة بيت أغوشي المحيطة بحلب، والتي كانت عاصمتها أرفاد (تل رفعت)، في حين يغلب الطابع الحثي في بعضها الآخر، كما هو الحال في تل عين دارا الذي لايبعد أكثر من ٤٠ كم جنوب غرب تل رفعت.

وقد قسم الأستاذ أكرم أكوركال في كتابه (الشرق والغرب) تطور فن النحت في هذا العصر إلى ثلاث مراحل، أطلق عليها:

العصر الحثي الجديد الأقدم ويمتد من ١١٠٠ - ٨٥٠ق.م.
العصر الحثي الجديد ويمتد من ٨٥٠ - ٧٣٠ق.م.
العصر الحثي الجديد الأحدث ويمتد من ٧٣٠ - ٦٨٠ق.م.

واتبع الأستاذ أورتمان الأسلوب نفسه في تقسيم هذا العصر وفق تطور أسلوب النحت، وأطلق على كل مرحلة اسم:

العصر الحثي الجديد /١/
العصر الحثي الجديد /٢/
والعصر الحثي الجديد /٣/

وأعتبر أكوركال المرحلة الأخيرة، التي تميز فيها الفن الآرامي، بعد أن تخلص من رواسب تأثير الفن الحثي والفن الميتاني، الذي كان مهيمناً منذ القرن الخامس عشر ق.م. أي في الوقت، الذي انتشر فيه النفوذ الآشوري فنياً وعسكرياً وحضارياً، سواء في النحت أو العمارة أو المعدات العسكرية في كافة أنحاء منطقة الشرق العربي القديم.

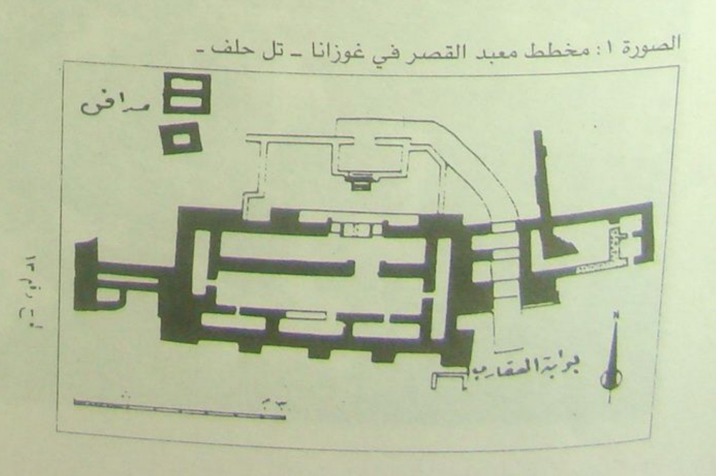
وقد دخل إلى جانب العناصر المؤثرة في الفن الآرامي من ميتانية وحثية وآشورية، عنصر جديد لايقل أهمية عن غيره، ألا وهو العنصر القادم من أورارتو في أرمينية، وقد كانت له صولات وجولات مع الآشوريين. واستطاع أن يهيمن سياسياً وعسكرياً في شمال سورية في النصف الأول من القرن الثامن ق.م، وأن يترك بصماته في المنحوتات والمجسمات إلى جانب التأثيرات الحثية والآشورية.

العمارة:

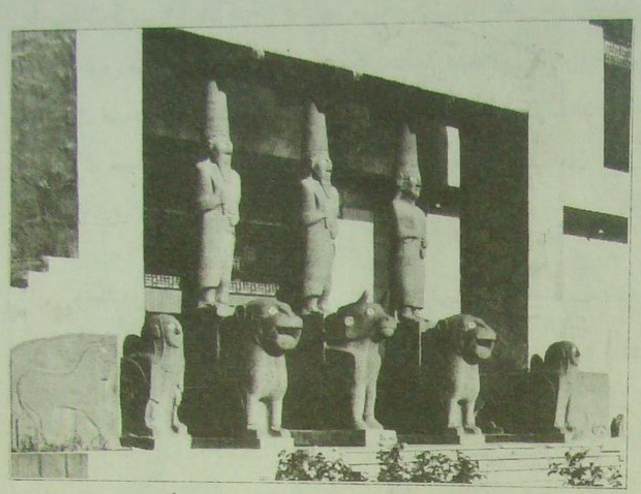
تأثر الآراميون بالإرث الحضاري الميتاني، عندما استوطنوا المدن وهجروا بداوتهم، ونرى هذا التأثير واضحاً في شكل البناء الذي ارتضوه لأنفسهم، إذ أنهم احتفظوا بما يسمى بـ (بيت حيلاني) المتميز بواجهته المنتصبة فوق أعمدة، تقع خلفها مباشرة القاعة الرئيسة على شكل مستطيل.

ومعبد القصر المكتشف في غوزانا (تل حلف) هو خير دليل لهذا النموذج البنائي، وهو يشابه في مخططه العام (انظر الصورة رقم ١)، مخطط القصر في الطبقة الرابعة في تل العطشانة (أنطاكية) الذي يعود إلى القرن الخامس عشر ق.م.

الصورة ١: مخطط معبد القصر في غوزانا - تل حلف -



ويتميز معبد القصر في تل حلف بواجهته الفريدة، فقد قامت تماثيل آلهة سماوية عملاقة مقام الأعمدة، ويقف كل إله فوق حيوان خاص يرمز له، فعشتار تقف فوق الأسد، وهدد فوق الثور (انظر الصورة رقم ٢).



واجهة معبد القصر من تل حلف، نسخة من الأصل - حالياً واجهة متحف حلب -

وربما كانت واجهة المعبد، هي المقصودة في كتابة كابارا بن خاديانو، المنقوشة فوق جدران القصر حيث يقول بأنه: «صنع شيئاً لم يستطع أسلافه أن يصنعوا مثله» وبالفعل لم يعثر منقبوا الآثار على شبيه مماثل لهذه الواجهة في كل حواضر الممالك الآرامية، التي تعود إلى نفس العصر.

وقد شيد على جانبي الواجهة برج من كل طرف، ويمر العابد بقاعة عرضانية أخرى مشابهة للأولى قبل أن يصل إلى الحرم الرئيس، وتحيط بالقاعات الثلاث غرف صغيرة. وتكسو أسفل جدران معبد القصر مشاهد منحوتة فوق ألواح بازلتية، تمثل موضوعات دينية وأسطورية واحتفالات الأمراء الرسمية والخاصة، ولم تكن الغاية من إكساء الجدران دينية فقط، بل لحماية جدران القصر المبنية من الطين المشوي من الأمطار والعواصف، عدا عن كونها عناصر زخرفية تضفي نوعاً من الأبهة على البناء.

وقد عمد الآراميون إلى بناء معابدهم وقصورهم على شكل قلاع محصنة فوق أماكن مرتفعة ودعموها بأسوار دفاعية، زيادة في الحرص على أمنها. وأحاطوا مدنهم بتحصينات دائرية أو مضلعة.

لم تكشف أعمال التنقيب عن معابد وقصور كثيرة في مواقع أخرى من هذا العصر، تمكننا من دراسة فن البناء بشكل جيد.

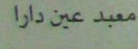
فبالإضافة إلى معبد القصر في غوزانا، ليس لدينا سوى ثلاثة معابد أخرى معاصرة في كركميش وعين دارا وتل طعينات قرب (أنطاكية) وكلها مربعة الشكل تقريباً. ينهض معبد عين دارا فوق مصطبة كبيرة يحيط بها ألواح من حجر البازلت منحوتة على شكل أسود وأبي الهول، وهي إما متقابلة وجهاً لوجه أو خلف بعضها بعضاً، وتعطي انطباعاً، كأن كل مشهد قائم بذاته، وليس له ارتباط بما يليه.

ومدخل المعبد واسع، يصعد إليه بدرج ضخم، مزخرف بألواح من النقش على شكل ضفائر، ويظهر أن للمعبد طابقاً ثانياً، شيد فوق أعمدة بازلتية ضخمة. (أنظر الصورة رقم ٣ ومخطط المعبد صورة رقم ٤).

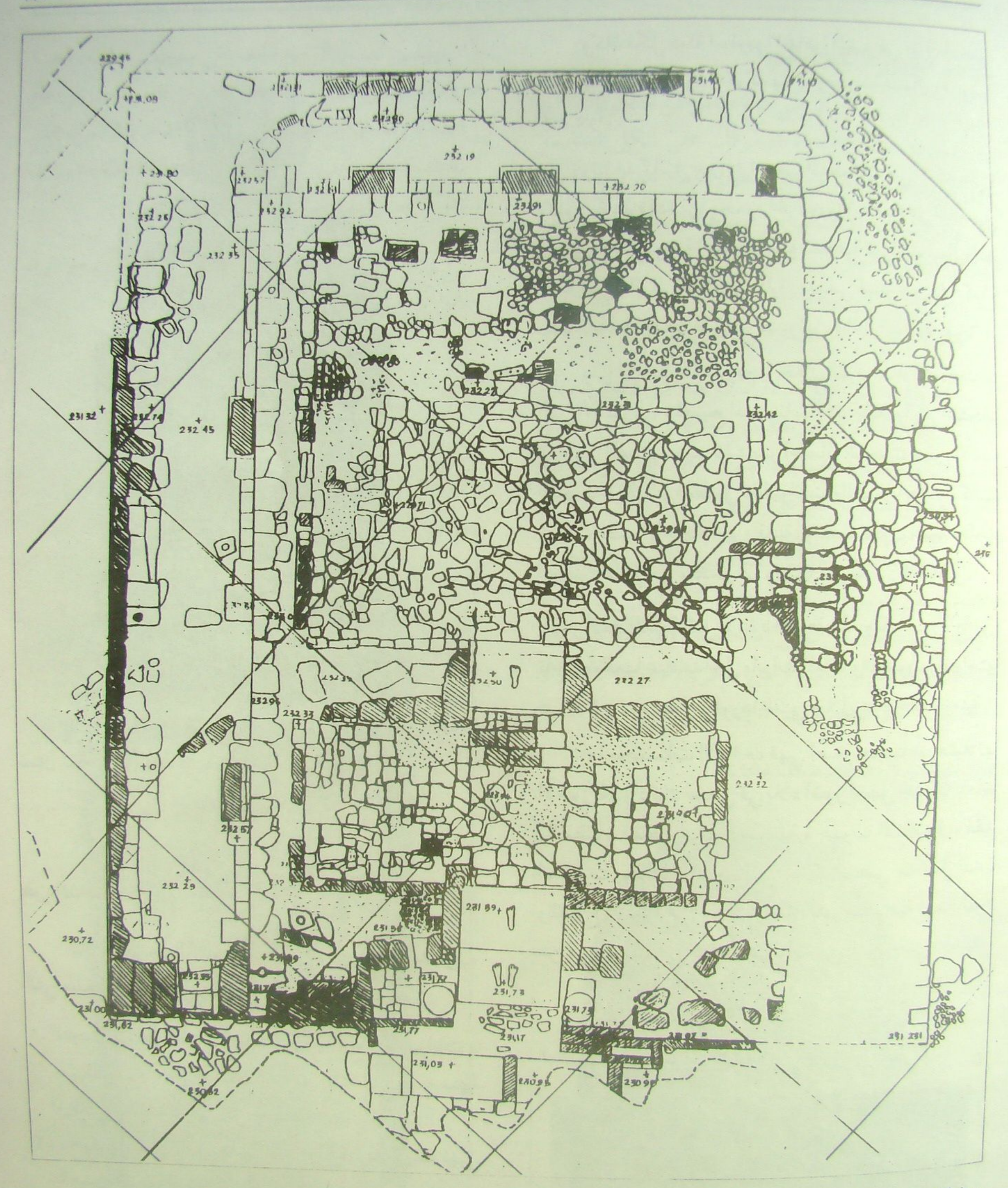
كما عثر على قواعد بازلتية داخل المعبد تنتصب فوقها تماثيل رب الجبل وعفاريت برأس طائر وكائنات خرافية، مكونة من جسم حيوان ورأس إنسان بشكل متناظر، ولم يبق للأسف من مشاهد الجدران الخارجية للمعبد، إلا أجزاء غير كاملة، لاتكفي لمعرفة الأصل.

وقد كشفت الحفريات في مدينة غوزانا معبداً صغيراً، مستطيل الشكل، كان يستخدم لعبادة الأسلاف، التي كان لها لدى الآراميين على مايبدو أهمية بالغة.

وكانوا يستخدمون في دفن موتاهم أسلوبين: الدفن العادي، وذلك بمواراة جثة المتوفى الثرى داخل قبور مبنية على شكل غرف، أو بطريقة الحرق. ويظهر أنهم اقتبسوا الأسلوب الثاني عن الشعب الحوري الميتاني، الذي لم يكن سامي الأصل. وكان تمثال الميت ينصب كشاهدة للقبر، فقد عثر على تمثالين لسيدتين من حاشية الأسرة الحاكمة فوق قبرين في تل حلف. وغالباً ما ترافق الجثة حلي الثياب، التي كان يرتديها المتوفى في حياته، ومعظمها من الذهب والأحجار الكريمة. (انظر الصورة رقم ٥).


معبد عين دارا





مخطط معبد عين دارا



تمثال سيدة من تل حلف كشاهدة قبر - متحف حلب -

فن النحت:

كان النحاتون الآراميون - كغيرهم من فناني الشعوب التي سبقتهم - يقومون بأعمال النحت على نوعين:

١- النحت الكامل للموضوعات من آلهة وبشر وحيوانات - حيث كان يتحرر التمثال كلياً من المادة التي صنع منها ويمكن مشاهدته من كل الجهات.

٢- نحت نصف كامل على الألواح الحجرية حيث تبرز أجسام الموضوعات المراد تجسيدها فوق سطح مستوٍ.

وقد يشترك النوعان معاً في موضوع واحد كما هو الحال في تماثيل واجهة معبد القصر في تل حلف. وطبيعي أن مادة الحجر البازلتي البركاني، ذي المسامات، لا تساعد كثيراً في نحت تفاصيل الجسم بدقة تامة، ولذا تصدمنا الغلظة والخشونة معاً، وهي تطالعنا في تماثيل الآلهة السماوية في واجهة معبد القصر.

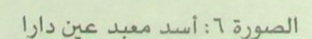
وكان لكل دولة أسلوبها الخاص المميز في طرق التعبير عن فنها، فهناك مدرسة كركميش، ومدرسة سمآل ومدرسة عين دارا.

وتشابه تماثيل عين دارا بعض المنحوتات في كركميش، وتتميز بقساوة التعبير، وجمود الحركة، والإستغناء عن التفاصيل الجزئية، رغم النوعية الجيدة والدقة المتناهية في أسلوب النحت كما هو الحال في أسد عين دارا. ويبقى أسد عين دارا كتلة جامدة صامتة تذهل المشاهد بهدوئها. (انظر الصورة رقم ٦).

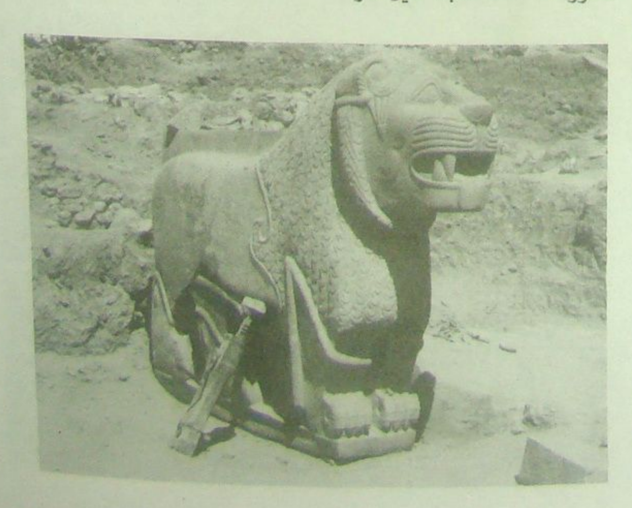
وتزول الخشونة تدريجياً خلال القرن الثامن ق.م بتأثير الفن الآشوري، وتصبح المنحوتات أكثر تألقاً وأكثر استجابة لأزميل الفنان. ولم تقتصر أعمال النحت على الآلهة المتجسدة بالبشر فقط بل بالحيوانات والطيور أيضاً، وكانت تنحت الطيور بأحجام غير واقعية، وتنصب فوق أعمدة داخل المعابد، مما يوحي بقدسيتها وقربها من نفوس العابدين.

كما كانت تماثيل الأسود المجنحة والمعروفة باسم (لاماسو) تأخذ مواقعها عند مداخل وأبواب المعابد والقصور، وبدراستها فنياً يمكن تتبع مسار تطورها الفني خلال عدة حقب زمنية.

أما مجسمات الألواح، فهي أصغر حجماً من مثيلاتها الآشورية، وكانت تغطي في بلاد آشور أسفل جدران المعابد والقصور فقط، أما في سورية وجنوب الأناضول، فقد انتشرت بشكل واسع حتى غدت تغطي مداخل المدن والقلاع. وقد قام الأستاذ أورتمان بدراسة وافية لهذا النوع من فن النحت في كتابه: دراسات في الفن الحثي الجديد.



الصورة ٦: أسد معبد عين دارا



شواهد القبور ابتكار آرامي:

اشتهر في العصر الآرامي نوع خاص من المنحوتات، لم يكن معروفاً من قبل، وهذه المنحوتات على شكل أنصاب، تحمل صورة إنسان واحد أو أكثر، يتناول الطعام المعد فوق مائدة.

وعرفت هذه الأنصاب في أوساط البحث الأثري على أنها شواهد قبور تحمل صورة الميت نفسه، وهو يتناول الطعام خلال مأتمه الجنائزي، ويستدل من هذه الشواهد على المكانة التي كان يتمتع بها السلف والتي تصل إلى درجة العبادة.

وقد عثر على مثل هذه الشواهد في قبور الموتى المدفونين بطريقة الحرق في حماه. وأودع في متحف حلب نصب من البازلت ضخم جداً طوله ٢,٨٥م، يمثل تقدمة مأتمية، ويعلو المشهد نسر ذو رأسين.

وحصل متحف حلب أيضاً على نصبين، من الحجر الكلسي عن طريق الشراء، ويعتقد أنهما من تل رفعت (أرفاد)، ويستدل من لباس أصحابهما وطريقة تصفيف قصة الشعر أنهما من صنع آرامي متأثر بالأسلوب الآشوري الحديث. (انظر الصورة رقم ٧).

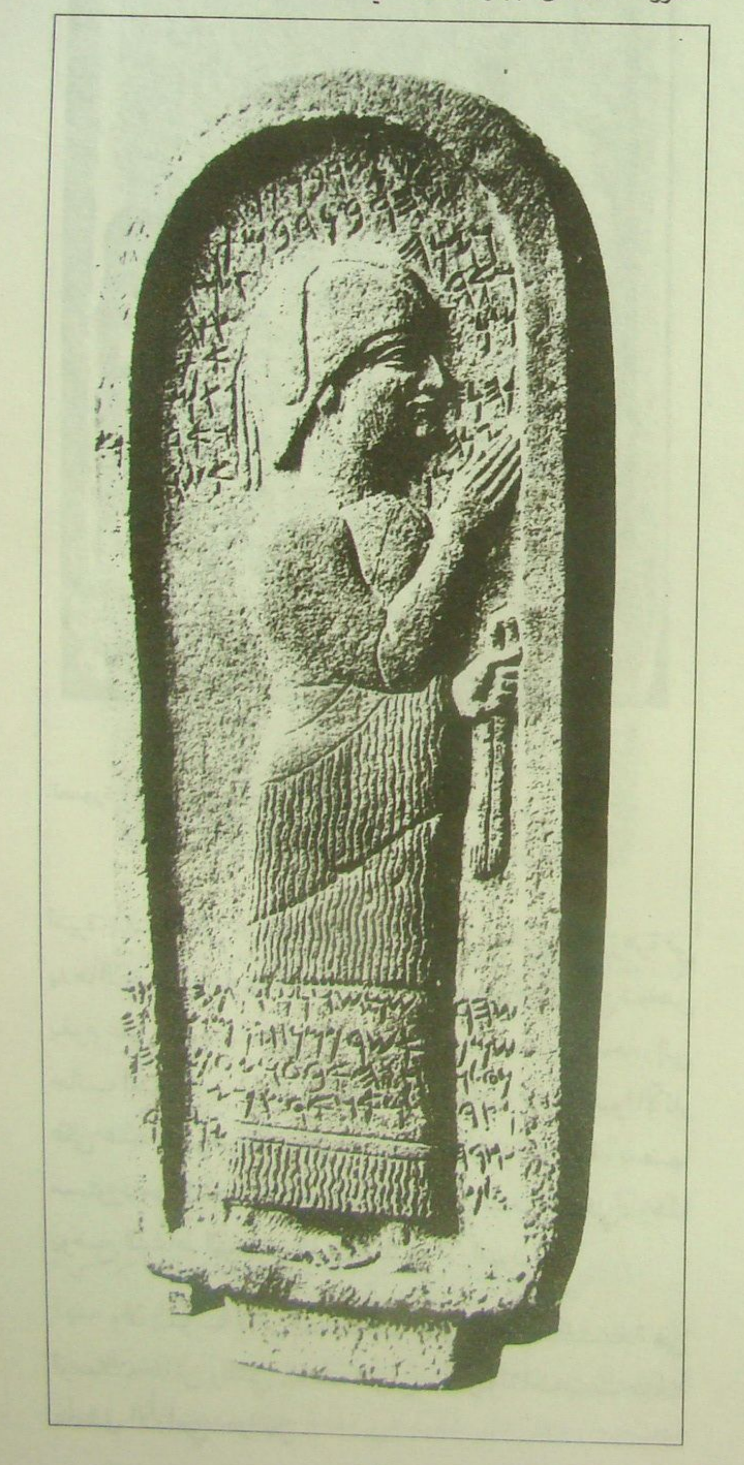
شاهدة قبر من تل رفعت؟ - متحف حلب -



ولدينا نسختان من الجص في متحف حلب، أخذا عن نصبين من البازلت، تم شراؤهما في النيرب حوالي عام ١٨٩١؟ وموجودان حالياً في متحف اللوفر بباريس، يمثل أحدهما الكاهن أجبار في وضعية من يؤدي التحية والسلام، ويمثل الآخر وليمة جنائزية. (الصورتان ٨ و٩).

وهذا الأخير مشابه لشاهدة قبر من سمآل، موجودة حالياً في متحف بركامون ببرلين (صورة رقم ١٠). وتمثل

الصورة ٨: الكاهن أجبار - نسخة في متحف حلب -

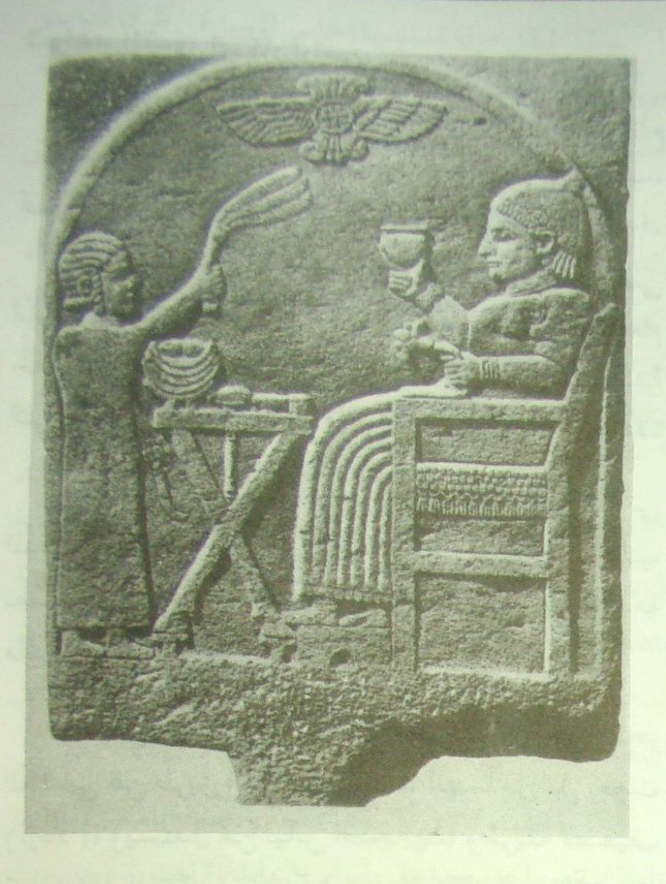




الصورة ٩: وليمة جنائزية ـ نسخة في متحف حلب ـ

أميرة جالسة على عرش، تحمل كأساً للشرب في يد، وزهرة في يدها الأخرى، وأمامهما تنتصب مائدة الطعام الجنائزية مع شخص يقوم على خدمتها. وفي الأعلى تسبح الشمس المجنحة. إلى جانب المنحوتات الحجرية الضخمة والعادية عثر منقبوا الآثار على عدد كبير من الأدوات المنزلية المعدنية والفخارية، بعضها مستورد من الشمال، وبعضها الآخر من البحر الإيجي، وهذا يوضح النشاط التجاري الذي امتاز به الآراميون.

ولا يفوتنا ذكر العاجيات الفينيقية المكتشفة في أرسلان طاش والتي كانت تزين سرير وأثاث بيت ملك دمشق الآرامي حزائيل.



شاهدة قبر من سمآل ـ متحف بركامون برلين ـ

وقد نهبها الآشوريون ونقلوها إلى أرسلان طاش (حداتو) بعد أن حولوا هذه المدينة إلى مقاطعة من مقاطعاتهم.

ويعتقد أن ملك دمشق حزائيل نفسه كلف أحد الفنانين الفينيقيين بصنع السرير العاجي له، كما يقول النص الآرامي: (صنع هذه (..............) ابن أمّا لسيدنا حزائيل في ....).

مواقع الآثار الآرامية في سورية:

لم تجر أعمال تنقيب أثرية كافية في مواطن الآراميين كي نتعرف عليها بشكل علمي ومدروس، وقد ذكرنا الإختلاط العرقي الجنسي، الذي حدث في الفترة التي رافقت ظهور الآراميين مع دول الإمارات الحثية.

وقد أهمل الدارسون « الفن الآرامي » وكأنه لم يكن له وجود إلا عرضاً. فكتاب أورتمان « دراسات في الفن الحثي الجديد » وكتاب أكرم أكوركال (الشرق والغرب)، يتحدثان عن الفن الحثي الجديد.

وقد قسم المؤلفان العصر الى ثلاث مراحل، يشمل أحدهما الفن الآرامي المتأثر بالأسلوب الآشوري. وربما جاء إهمال الباحثين للفن الآرامي لقلة المواقع التي نقب فيها، فبغض النظر عن «تل حلف» و «سيكاغوزو» و «سمآل» لم تجر أعمال واسعة في مواقع أخرى، تدعم اكتشافات هذه الحواضر الآرامية الثلاث.

ففي دمشق، وهي أهم عاصمة من عواصم الدول الآرامية، كان الأثر الوحيد، الذي عثر عليه من العصر الآرامي، هو نقش بارز، يمثل كائناً خرافياً مجنحاً (سفنكس). وقد ضم هذا الأثر إلى حائط الجامع الأموي. (الصورة رقم ١١).



الصورة ١١: نصب من البازلت عثر عليه في الجامع الأموي بدمشق مضافاً إلى جداره، عليه مشهد «أبو الهول» المجنح «متحف دمشق الوطني» «سفنكس»

والجامع نفسه أقيم على أنقاض معبد الإله هدد الآرامي. ويتميز النقش بأسلوب النحت الفينيقي، مما يشير إلى أن ملوك دمشق، كانوا يستخدمون فنانين وعمالاً فينيقيين، كما شاهدنا ذلك في مجموعة القطع العاجية والمنقولة من دمشق إلى حداتو (أرسلان طاش) بواسطة الآشوريين. وقد عثر على مشابهات لها في كل من مجيدو، والسامرة، ونمرود. ويعتقد أن نصب الرب ملقارت (صورة رقم ١٢)، المكتشف في بريج قرب حلب، يعود أصلاً إلى دمشق، وقد أقامه ملك دمشق بن هدد الأول، وهو مشابه لمنحوتات سمآل ويحمل كتابة آرامية هذا نصها:



الرب ملقارت من بريج قرب حلب ـ حالياً في متحف حلب الوطني ـ

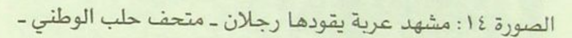
«النصب الذي أقامه بر هدد بن طبرمون بن حزيون، ملك آرام، إكراماً لربه ملقارت، وقد أقامه له، لأنه سمع صوته».

أما في حلب نفسها، الواقعة في مملكة بيت أغوشي، فلم يعثر فيها إلا على النذر اليسير من الآثار الآرامية، منها النقش المنحوت على كتلة ضخمة من حجر البازلت لجنيين مجنحين، وقد عثر عليه في قلعة حلب مضافاً إلى بناء

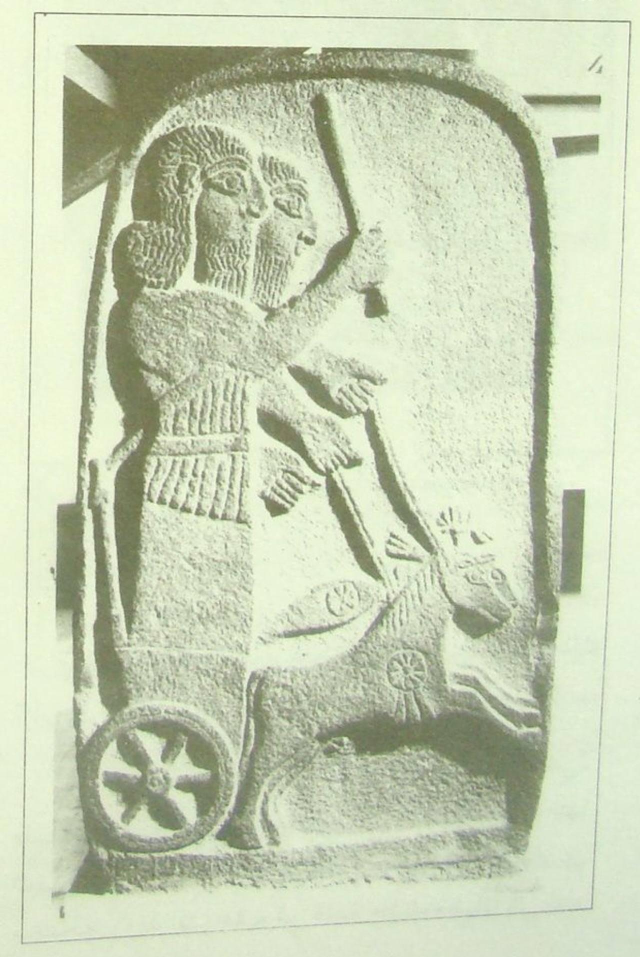
إسلامي من العصور الوسطى (صورة رقم ١٣)، وتمثال آخر من البازلت، اكتشف أثناء تشييد بناء حديث في موقع عين التل بالقرب من شمال مدينة حلب (صورة رقم ١٧)



الصورة ١٣: جنيان مجنحان من قلعة حلب - حالياً في متحف حلب الوطني -



الصورة ١٤: مشهد عربة يقودها رجلان - متحف حلب الوطني -





الصورة ١٧: تمثال أمير من حجر البازلت - عين التل - حلب، متحف حلب القرن التاسع ق.م.

وهو مشابه لمنحوتات كركميش. وحديثاً عام ١٩٨٣ ورد إلى متحف حلب، نصبان من حجر البازلت، عثر عليهما صدفة أثناء الحرث في صرين بالقرب من عين العرب. على أحدهما مشهد عربة يقودها رجلان (صورة رقم ١٤)، ومن دراسة أسلوب النحت فيه، نرى أنه مشابه لمنحوتات الدولة الآشورية ويمكن ضمه إلى مجموعة المنحوتات المكتشفة في أرسلان طاش (حداتو) المعروضة في متحف حلب الوطني.

أما النصب الآخر، فهو بحجم الأول، وقد نقش عليه رمز إله القمر (سن) إله حران، وهو عبارة عن هلال يرتكز فوق رمز آخر للإله مردوخ . (صورة رقم ١٥) .



الصورة ١٥ : مشهد عليه رمز إله القمر ورمز آخر للإله مردوخ ـ متحف حلب الوطني ـ

ومن صرين أيضاً تمثال من حجر البازلت بطول ١,٩٤م وعرض ٤٧ سم، لأمير يرتدي ثوباً طويلاً متنطقاً بزنار، ذي شرابة، يتدلى منه سيف، وهو عاري الرأس، يحمل في يده اليمنى عصا طويلة . انظر (الصورة رقم ١٦)

وتمثال الأمير هذا مشابه لتمثال عين التل الذي مر ذكره (صورة رقم ١٧) . وهما أقرب إلى الأسلوب الحثي الجديد المعروف في كركميش، منه إلى الأسلوب الآرامي المتأثر بالفن الآشوري .



الصورة ١٦ : تمثال أمير من حجر البازلت عثر عليه في صرين (عين العرب) متحف حلب الوطني ـ القرن التاسع ق.م.

وفي موقعي أرسلان طاش وتل حاجب (مدينة حداتو)، تشكلت بعثة فرنسية برئاسة الأستاذ تورو دانجان، للتنقيب فيها، إثر اكتشاف نصب محارب صدفة عام ١٩٠٠م، وهو موجود حالياً في متحف اصطنبول . إلا أن البعثة المذكورة، لم تعثر على آثار تعود إلى عصر أقدم من العصر الآشوري، وكل الآثار المكتشفة في هذين التلين، هي من صنع محلي خلال الحكم الآشوري، ويظهر ذلك من رداءة النحت، ومن العجز عن إبراز التفاصيل الدقيقة، التي اشتهر بها الفن الآشوري الحديث .

ولم تكن أعمال التنقيب التي جرت من عام ١٩٢٩-١٩٣١ في تل أحمر (بارسيب) أوفر حظاً، إذ لم يعثر إلا على بقايا أبنية لا أهمية لها تعود إلى ما قبل الاحتلال الآشوري، ولا تحوي أية منحوتة من العصر الآرامي.

وقد ظهرت في الآونة الأخيرة آثار آرامية كثيرة بعد معاودة التنقيب في التل من قبل بعثة استرالية.

ومن تل فريج الذي يقع حوالي ٢٠كم شمال خان شيخون، حصل متحف حلب على نصب (شاهدة قبر) نقش على القسم العلوي منه مشهد وليمة، وعلى القسم السفلي حيوان يذبح. والتل غير منقب ولا يعرف عنه شيئاً.

وكان قد قام الأستاذ (مكوان) بأعمال التنقيب الأثري لعدة مواسم في تل طعينات (سهل أنطاكية) اكتشف خلالها عدداً من الأبنية، مشيدة بأسلوب «بيت حيلاني» المعروف في تل حلف وعين دارا.

كما قامت البعثة الإيطالية برئاسة الأستاذ باولو ماتييه (المنقب في تل مرديخ) بإجراء بعض الأسبار على سطح تل أفيس الضخم، والواقع على بعد ٤٠كم جنوب غرب حلب، وكان الدافع إلى إجراء هذه الأسبار العثور صدفة في أوائل العشرينات من هذا القرن على نصب من حجر البازلت، يحمل كتابة آرامية، منقوش عليه صورة شخص واقف، لم يبق منه سوى القسم السفلي، وهو موجود حالياً في متحف اللوفر ومنشور في مجلة سيريا رقم ٣ عام ١٩٢٢.

ويذكر النص الآرامي اسم زكير ملك حماه ولغش، كما يلقي بعض الأضواء على العلاقات السياسية، التي كانت سائدة بين شتى دول الإمارات الآرامية في ذلك الحين.

وقد أختلط الأمر فيما يبدو على الأستاذ ماتييه بين هذا النصب والنصبين المنسوبين إلى النيرب (أنظر شواهد القبور).

فالنصبان المذكوران تم شراؤهما من النيرب، بين عامي ١٨٩١و ١٨٩٧ ونشرا في مجلة (Etudes d' Archeologie; Orientale II) ويعتقد أنهما في الأصل من المقبرة المكتشفة في النيرب، ويمثل أحدهما الكاهن إجبار في حالة الجلوس على مائدة الوليمة الجنائزية، يحمل في يده كأساً للشرب، وأمامه خادم يذب عنه بمذبه.

ويذكر نص الكتابة المحفورة تحت قوس النصب، أن صاحب الصورة، هو الكاهن إجبار، كاهن إله القمر في حران والنيرب، وترد في النص أسماء الآلهة شمش، ونرجال، ونوسكو، ثم ينتهي النص بالدعاء على كل من يشوه هذا النصب.

وطراز مائدة الوليمة مشابه لشاهدة قبر أميرة من سمآل موجودة حالياً في متحف بركامون ببرلين. وثوب الكاهن يشي بتأثيرات العصر الآشوري الحديث، ويؤرخ النصب بحوالي عام ٧٣٠ق.م.

أما النصب الثاني فتذكر كتابته اسم الكاهن (سن-زر-ابني) الذي يقف رافعاً إحدى يديه للتحية وحاملاً في الأخرى منديلاً مطوياً.

وقد انتشرت الكتابة تحت قوس النصب، وعلى أسفل ثوب الكاهن حيث تقول: (سن-أزر-ابني)، كاهن سن، هو متوفي وهذه صورته وقبره. وينتهي النص كسابقه بلعن كل من يسيء إليه.

والمعروف أن تل النيرب يقع على بعد ٦كم فقط من الجنوب الشرقي لمدينة حلب، ولا ندري ما الأسباب التي دعت الأستاذ ماتييه إلى نسب النصبين السابقين إلى تل أفيس، رغم ورود اسم النيرب مقترناً بحران في نصب الكاهن إجبار؟

وقد تم اكتشاف مقبرة في قمة التل عام ١٩٢٦ من قبل بعثة فرنسية برئاسة الأستاذ آبل باروا، كما عثر على ٢٥ رقيم طيني في التل، يرد فيها ذكر مدينة النيرب أيضاً. ونعتقد أن العلبة المصنوعة من حجر الديوريت، والتي حصل عليها متحف حلب عن طريق الشراء، تعود أصلاً إلى تل رفعت (أرفاد)، وقد نقش عليها مشاهد صيد وقنص أسود وغزلان بواسطة القوس والنبال داخل عربة ملكية - ويظهر في المشهد طيور جارحة وكلب. (الصورة رقم ١٨).

وأسلوب النحت فيها يذكرنا بمنحوتات تل حلف (غوزانا) الآرامية. وفي شباط عام ١٩٧٩ عثر على تمثال ضخم من حجر البازلت صدفة جنوب شرق تل فخيرية الواقع جنوب رأس العين وهو موجود حالياً في متحف دمشق الوطني.



مشهد صيد وقنص أسود على علبة من حجر الديوريت يعتقد - أنها من تل رفعت

يحمل التمثال صورة الملك هدد يسعي، وقد نقش أسفله فوق الثوب الطويل باللغتين الآشورية والآرامية، ويستدل من النص على اسم مدينة سيكاني حاضرة مملكة جوزان الآرامية، وأسلوب النحت كما هو واضح متأثر بالأسلوب الآشوري الحديث.

نستدل من سياق ما تقدم أن نسبة أعمال التنقيب في مواقع الاستيطان الآرامي ضئيلة جداً، إذا ما قيست مع غيرها. ومعظم الآثار التي تحدثنا عنها، جاءت من أماكن متفرقة في القطر العربي السوري، دون إجراء أعمال تنقيب منهجية فيها. وتبقى الآثار الآرامية في سورية حصيلة فنون لحضارات شعوب متعددة، مضافاً إليها نكهة آرامية متميزة.

المراجع

١. W.Orthmann: Untersuchmgen zur spaethethitischen Kumst. Bomm, 1971.

٢. A.Akurgal, späthethitische Bildkunst.

٣. M.Von Oppenheim, der Tell Halaf.1931.

٤. A.Akurgal, Orient und Okzident,1966.

٥. P.Riis, Hama II,3,1948.

٦. F.Thureau- Dangin, Arslan Tash,1931.

٧. A.Akurgal, die Kumst der Hethiter, 1961,.

٨. W. Orthmam, Kunstgeschichte, Berlin 1975.

٩-د. علي أبو عساف، الحوليات السورية لعدد ٣٢، عام ١٩٨٢.

١٠-دوبونت سومر، تعريب ألبيرا أبونا: الآراميون، مجلة سومر، المجلد ١٩، عام ١٩٦٣، بغداد.

١١-محمد وحيد خياطة، دليل الآثار السورية القديمة.
منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف عام ١٩٧٦.